الفصل الأول

الأوضاع السياسية فى فترة نشأة الحجاج

- ولاية معاوية بن ابى سفيان وأخذ البيعة ليزيد
- الحسين بن على .. الثائر الشهيد
- معارضة عبد الله بن الزبير للحكم الوراثى
- موقعة الحَرّة
- الهجوم على ابن الزبير فى مكة
- بنى أمية بعد وفاة يزيد

ولاية معاوية بن ابى سفيان وأخذ البيعة ليزيد

تغيرت الأمور كثيراً منذ وفاة عمر بن الخطاب .. بويع عثمان بن عفان وبسبب أسلوبه الحليم مقارنة بعمر تجرأ عليه بعض السفهاء وبدأوا فى تزكية نار الفتنة حتى وصل بهم الأمر لمطالبته بخلع نفسه .. بالطبع لم يخلع عثمان نفسه وظل متمسكاً بحقه فتكتلوا عليه وقتلوه .. الفوضى فى كل مكان .. استقرت الناس وقتها على تولية علىّ بن أبى طالب كخليفة للمسلمين .. الجميع بايع إلا معاوية بن أبى سفيان ولى دم عثمان بن عفان .. لا يمكن أن يمر الأمر بهذه البساطه .. قال إنه على استعداد لمبايعة علىّ ولكن بعد أن يسلمه قتلة عثمان فيقتص منهم .. أما علىّ رضى الله فرفض تسليمهم بسبب الظرف السياسى وقتها وأن القتلة كانوا مسيطرين تماماً على مفاصل المدينة المنورة وقبل أن يسلمهم يجب أن تجتمع كلمة الناس أولاً فيكون موقفهم أقوى أثناء مواجهتهم ..

* * *

كانت الأوضاع متشابكة وبدا أن الوصول لحل يرضى الطرفين لا يلوح فى الأفق واستغل المنافقين هذا وزادوا فى فجوة الخلاف بين الرجلين حتى وصل الأمر للإقتتال .. فى البداية معركة الجمل ثم معركة صفين ثم لجوء الطرفين لتحكيم كتاب الله ووقف القتال حرصاً على دماء المسلمين وعندها زادت اوجاع الأمة بظهور الخوارج الذين

رفضــوا أن يحتكمــوا إلى كتاب الله رغم أنهــم أول من وقف فى وجه الإمام علىّ وضغطوا عليه ليقبل به .. كانت الأمور تســير من ســيء لأســوأ .. الأمة تتحزب وتتفرق وكل طرف يــرى أنه على الحق .. فتنة عظيمة المت بالأمة فى ذلك الوقت ..

* * *

الخوارج استغلوا ذلك الوضع وقاموا بقتل الإمام علىّ رضى الله عنه فزادت الأمور ســوءاً وبدأ الحديث يكثــر عن وجوب الثأر و وجوب قتال الخــوارج من ناحية وقتال معاوية بن أبى ســفيان مرة أخرى ليعــود لصفوف الجماعة من ناحية أخــرى وتم وضع كل تلك الأمور أمام الحســن بن علىّ الذى بويع بالخلافة بعــد أبيه وبينما يتجهز الجميع لحربٌ جديدة بين أهل العراق واهل الشام إذا بالحسن رضى الله عنه يختار أن يحقن دماء المسلمين ويعقد إتفاقاً بينه وبين معاوية رضى الله عنه يقضى بأن يتنازل له عن الخلافة على أن تعود الخلافة إليــه مرة أخرى بعد وفاته فتتوحد بهذا كلمــة الأمة بعد أن كانت على شــفير الإقتتــال الأهلى .. وقد كان تنازله هــذا دليلاً على كرم أخلاقــه وقوته حيث أن جيش العراق وقتهــا كان أكثر عدداً وأعلى تجهيزاً وأكبر قدرة على حسم الأمور إلا أن الحسن رضى الله عنه لم ينظر لنقاط القوة تلك و وضع تركيزه على حقن الدماء وتوحيد الكلمة .. حــدث هذا عام واحد وأربعين هجرياً .. أُطلق على ذلك العام عام

الجماعة بسبب إجتماع كلمة المسلمين بعد سنين من الحروب ..

معاوية بن أبى سفيان أصبح رسمياً أميراً للمؤمنين ..

* * *

معاويــة كان نعــم الحاكم الذى ســاس رعيتــه بالحكمة والرفق وبسبب حسن إدارته إتســم عهده بالإستقرار السياسى والإجتماعى .. أربعــون عام قضاها معاوية فى مناصــب القيادة نصفها فى ولاية الشــام ونصفها الأخــر فى إمارة المؤمنين اكتســب من خلالها خبرة إداريــة وسياســية مكنته من تطوير الهيكل الإدارى للدولة بشــكل هائل .. متى بدأت المشاكل إذاً ؟

بدأ كل شيء مع وفاة الحسن بن على رضى الله عنه ..

* * *

أحد شروط الصلح فى عام الجماعة كان تولى الحسن بن على رضى الله عنه لإمارة المؤمنين بعد معاوية إلا أن القدر ســبق وتوفى الحسن رضــى الله عنه قبل معاوية وبوفاته شــعر معاوية أن الفتنة يمكن أن تعود لتطل برأســها مرة أخرى إذا ما توفى قبل أن ينظم أمور الدولة خاصــة أن عمره وقت وفاة الحســن كان ثمانية وســتون عاماً .. قرر معاوية أن يســتخلف فى حياته ســائراً فى هذا على خطى أبو بكر الصديق ..

لم تكن المشكلة فى طريقة الإختيار ..
وإنما فى الإختيار ذاته ..

* * *

بوفاة الحسن بدأ الحديث يكثر فى دمشق عن ضرورة عدم خروج الإمارة من بنى أمية وحجتهم فى هذا أن الشـرط الأساسى الذى بنى عليـه الصلح فى عام الجماعة انتفى .. الحسـن بن على توفاه الله .. إذا فنحن أحق بالإمارة من غيرنا خاصة وأننا الآن أهل الحل والعقد وأصحـاب اليد الطولى والأكثر عدة وعتاداً .. رغبة قوية فى الإحتفاظ بالإمارة اعترت بنى أمية وقتها وكان معاوية يلحظها ويعلم مآلاتها .. إن لم يختـار ولياً لعهده فـى حياته لاندلعت الحرب مرة أخرى بعـد وفاته .. كمـا قلنا هذا لم يكن أصل المشـكلة .. المشـكلة كلها تبلـورت فى الإختيار ذاته .. معاوية بن أبى سـفيان قرر أن يختار ابنه يزيد ولياً لعهده ..

* * *

اختيـار يزيد بالطبـع وافق هوى بنى أميـة وأتباعهم فقبلوا به ولم يعترضوا فقرر معاوية على الفور إرسـال الوفود إلى أقطار الدولة ليأخذ البيعة منهم فوافق الجميع ولم يتبقى إلا أهم ولاية فى ولايات الدولة الإسلامية وقتها .. المدينة المنورة ..

بسبب أهميتها الدينية ومكانتها فى نفوس المسلمين وأيضاً بسبب إقامة كثير من أبناء كبار الصحابة فيها صار أمر أخذ البيعة من المدينة أكثر ما يؤرق معاوية بن أبى سفيان وقتها .. أبناء كبار الصحابة أصحاب رأى معتبر وعموم الناس يأخذ به فإن قبلوا بلا مشاكل قبل الناس أيضاً وسارت الأمور كما يحب معاوية ويريد .. أما إذا رفضوا فعندها قد يفتح باب جديد لفتنة لا يعلم مداها إلا الله..

* * *

أهل المدينة رفضوا مبايعة يزيد ورفضهم كان نابعاً بالأساس من رفض أسماء لها ثقلها .. الحسين بن على .. عبد الرحمن بن أبى بكر .. عبد الله بن عباس .. عبد الله بن الزبير .. عبد الله بن عمر .. بسبب رفضهم اضطر معاوية إلى الذهاب إلى المدينة بنفسه ليأخذ البيعة منهم بنفسه وظن أن ذهابه إليهم قد يجعلهم يقبلوا البيعه تحرجاً منه ..

أما الحسين فقد خرج من المدينة إلى مكة قبل وصول معاوية رافضاً للبيعة .. وأما عبد الرحمن بن أبى بكر فقد رفض البيعة وقال لمعاوية :

(إنك والله لوددت أنّا وكلناك فى أمر ابنك إلى الله .. وإنا والله لا نفعل .. والله لتردن هذا الأمر شورى فى المسلمين أو لتفرنها عليك جذعة[1]

(١) أى يتحول الأمر لفتنة

ثــم خرج إلى مكة وهو رافــض للبيعة وتوفى وهو على أبوابها .. أما ابن الزبير فقال :

(إن كنت قد مللت الإمارة فاعتزلها وهلم ابنك فلنبايعه .. أرأيت إذا بايعت ابنك معك .. لأيكما نسمع ؟ .. لأيكما نطيع ؟ .. لا تجتمع البيعة لكما أبداً)

و كان ابن الزبير يريد بمقولته هذه التملص من البيعة وهو أذكى من أن يظن ان البيعة ســتكون لهما فى نفس الوقت .. كان يعلم تمام اليقــين أن البيعة ليزيد بعد وفاة معاويــة ولكنه قال ما قال لإنه لم يــرد أن يبايع .. بعدها غادر هو الأخر إلى مكة واجتمع بالحســين هنــاك .. أما عبد الله بن عمر فرفض المبايعــة فى البداية واختار أن يبايع بعد مبايعة الناس كلها وقال لمعاوية :

(إنه قد كان قبلك خلفاء لهم أبناء ليس ابنك خيراً منهم فلم يروا فى ابنهم ما رأيت فى ابنك ولكنهم اختاروا للمســلمين حيث علموا الخيار .. وإنك تحذرنى أن أشق عصا المسلمين ولم أكن لأفعل .. وإنما أنا رجل من المسلمين فإذا اجتمعوا على أمرٍ فإنما أنا واحد منهم)[1]

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطى – ص ١٢٦

وقد ذكر ابن كثير رواية أخرى قال فيها أن معاوية قابل الخمسة المعترضين كلٌ على حده وهددهم وخطب فى الناس وهم قعود أمامه فى الصف الأول ولم يعترض منهم أحد والله أعلى وأعلم ..

* * *

إجمالاً فإن كل من سبق ذكرهم لم يرفضوا بيعة يزيد رفضاً لشخص يزيد وإنما كان أساس رفضهم هو مبدأ التوريث فيتحول الأمر من الشورى إلى ملكاً يتوارثه فرع واحد دون عامة المسلمين .. وفيما يخص معاوية نفسه فقد قيل أن إختياره ليزيد نابعاً من حب الوالد لولده وأنه رأى فيه تميزاً دنيوياً وكفاءة إدارية لم يجدها فى غيره ورغم حبه ليزيد وقناعته به إلا أنه روى عنه أنه قال فى خطبته :

(اللهم إن كنت تعلم أنى وليته لأنه فيما أراه أهل لذلك فأتمم له ما وليته .. وإن كنت تعلم أنى إنما وليته لأنى أحبه فلا تتمم له ما وليته)[1]

– يقول بن خلدون فى مقدمته :

(والذى دعا معاوية لإيثار ابنه يزيد بالعهد دون من سواه إنما هو مراعاة المصلحة فى اجتماع الناس واتفاق أهوائهم باتفاق أهل

(١) البداية والنهاية لابن كثير – الجزء الثامن – ص ٨٠

الحــل والعقد عليه حينئذ من بنى أمية إذ بنو أمية يومئذ لا يرضون ســواهم وهم عصابة قريــش وأهل الملة أجمع وأهــل الغلب منهم .. فآثــره بذلك دون غيره ممن يظن أنه أولى بهــا وعدل عن الفاضل إلى المفضــول حرصاً على الاتفــاق واجتماع الأهواء الذى شــأنه أهم عند الشــارع وإن كان لا يظن بمعاوية غير هــذا فعدالته وصحبته مانعة من ســوى ذلك .. وحضور أكابر الصحابة لذلك وســكوتهم عنه دليل على انتفاء الريب فيه .. فليسوا ممن يأخذهم فى الحق هوادة وليس معاوية ممن تأخذه العزة فى قبول الحق)[1]

– ويقول الذهبى فى أمر معاوية:

(حســبك بمن يُؤَمْره عمــر ثم عثمان على إقليــم – وهو ثغر – فيضبطــه ويقوم به أتم قيام ويرضى الناس بســخائه وحلمه وإن كان بعضهم تألم مرة منه وكذلك فليكن الملك .. وإن كان غيره من أصحاب رسول الله خيراً منه بكثير وأفضل وأصلح .. فهذا الرجل ساد وساس العالم بكمال عقله وفرط حلمه وســعة نفســه وقوة دهائه ورأيه وله هنات وأمور والله الموعد .. وكان محبباً على رعيته عمل نيابة الشــام عشــرين ســنة والخلافة عشرين ســنة ولم يهجه أحد فى دولته بل دانت له الأمم وحكم علــى العرب والعجم وكان ملكه على الحرمين

(١) المقدمة لابن خلدون – الفصل الثلاثون – فى ولاية العهد

ومصر والشام والعراق وخراسان وفارس والجزيرة واليمن والمغرب وغير ذلك)[1]

فرحم الله معاوية والحسين والزبير وابن عمر وسائر صحابة رسول الله ﷺ وغفر الله لهم ولأمة المسلمين جميعاً .. وإنما يجب علينا أن نحسن الظن بهم جميعاً أيما إحسان .. فما أخذ أحدهم قراراً ولا عارض أحدهم معارضة إلا إرضاءاً لله ولعزة الإسلام .. ولم تكن لهم أبداً مصلحة دنيوية فى ملك أو سلطة وإنما هو الرأى والإجتهاد لما فيه صالح الأمة ..

* * *

(١) سير أعلام النبلاء للذهبى – الجزء الثالث – ص ١٣٢ : ١٣٣

الحسين بن على .. الثائر الشهيد

بعد وفاة معاوية بن أبى سفيان تقلد ابنه يزيد مسئولية الإمارة فكان أول ما فكر فيه هو أخذ البيعة ممن امتنعوا عن بيعته فى حياة والده وعلى رأسهم الحسين بن على وعبد الله بن الزبير فأرسل إلى واليه على المدينة الوليد بن عتبة لكى يأخذ البيعة منهما وبالفعل أرسل إليهما فذهب إليه الحسين واجتمع معه وسمع منه خبر وفاة معاوية وقرأ عليه كتاب يزيد يدعوه فيه إلى البيعة فلما انتهى قال الحسين :

(إنا لله وإنا إليه راجعون .. أما ما سألتنى من البيعة فإن مثلى لا يعطى بيعته سراً ولا أراك تجتزئ بها منى سراً دون أن نظهرها على رؤوس الناس علانية)

فقال الوليد :

(أجل)

فقال :

(فإذا خرجت غداً إلى الناس فدعوتهم إلى البيعة دعوتنا معهم فكان أمراً واحداً)[1]

(١) تاريخ الطبرى – الجزء الخامس – ص ٣٣٩ : ٣٤٠

و كان رضـى الله عنـه يؤجـل المبايعة لغرض فى نفسـه ألا وهو الخـروج إلى مكة .. خبر خروجه وجد طريقه بشـكل ما إلى العراق وتحديـداً إلى الكوفة .. والكوفـة كانت المكان الذى اتخذه والده على بـن أبى طالب رضى الله عنه مقراً للخلافة وبها أكبر عدد من الموالين له ولإبنه الحسـن من بعده .. أهـل الكوفة لما سمعوا بما حدث رأوا أنها أنسـب فرصة لأن يتولى الحسـين الخلافة فقاموا بالإجتماع فى بيت زعيمهم سـليمان بن صرد واتفقوا على أن يرسـلوا إلى الحسين رسـائل يحثونه فيها على القدوم إلى الكوفـة ليبايعونه .. وبالفعل بدأت الرسائل فى الوصول إلى الحسين تباعاً ..

(بسـم اللَّه الرحمـن الرحيم .. لحسـين بن على من شـيعته من المؤمنين والمسلمين .. أما بعد .. فحيهلا .. فإن الناس ينتظرونك ولا رأى لهم فى غيرك .. فالعجل العجل والسلام عليك)

(أما بعد فقد أخضر الجناب وأينعت الثمار وطَمَّت الجِمام .. فإذا شئت فأقدم على جند لك مجند والسلام)

تتابـع الرسـائل وكثرتها جعل الحسـين يفكر فـى الخروج إلى الكوفـة بالفعل ولكنه أراد أن يسـتوثق منهم فقـرر أن يبعث إليهم بكتاب قال فيه :

(بسم الله الرحمن الرحيم .. من الحسين بن علي إلى الملأ من المؤمنين والمسلمين .. أما بعد .. فإن هانياً وسعيداً[1] قدما على بكتبكم وكانا آخر من قدم على من رسلكم .. وقد فهمت كل الذى اقتصصتم وذكرتم ومقالة جُلّكم أنه ليس علينا إمام فأقبل لعل الله يجمعنا بك على الحق والهدى .. وإنى باعث إليكم أخى وابن عمى وثقتى من أهل بيتى مسلماً بن عقيل وأمرته أن يكتب إلى بحالكم وأمركم ورأيكم .. فإن كتب إلى أنه قد أجمع رأى ملأكم وذوى الفضل والحجى منكم على مثل ما قدمت على به رسلكم وقرأت كتبكم فإنى أقدم إليكم وشيكاً إن شاء الله والسلام)[2]

* * *

وصل مسلم بن عقيل إلى الكوفة فى أوائل شهر شوال عام ستين هجرياً ونزل فى دار المختار بن أبى عبيد الثقفى وبدأت الناس فى القدوم إليه لمبايعة الحسين وبالطبع كثرة التحركات لفتت الأنظار وهو ما التقطته العيون وأوصلته إلى يزيد بن معاوية الذى غضب بسبب عدم اتخاذ النعمان بن بشير عامله على الكوفة أى إجراء لإيقافه فقرر على الفور أن يعزله من منصبه وعين بدلاً منه رجلاً عُرف عنه الشدة والحزم .. عبيد الله بن زياد ..

(١) يقصد هانىء بن هانىء السبيعى وسعيد بن عبد الله الحنفى

(٢) تاريخ الطبرى – الجزء الخامس – ص ٣٥٣

فى تلك الأثناء وقبل أن يعلم مسلم بن عقيل أمر تولى ابن زياد ولاية العراق كان قد أرسل رسالة إلى الحسين رضى الله عنه قال فيها :

(أما بعد .. فإن الرائد لا يكذب أهله .. وأن جميع أهل الكوفة معك .. وقد بايعنى منهم ثمانية عشر ألفاً .. فعجل الاقبال حين تقرأ كتابى هذا)[1]

كان هذا هو القول الفصل الذى انتظره الإمام الحسين ..

حان الآن وقت الخروج ..

* * *

بينما يتجهز الحسين ومن معه للخروج كان عبيد الله بن زياد يرتب الأوراق من جديد فى الكوفة .. أخذ الناس باللين تارة وبالشدة تارة أخرى .. أطلق عيونه فى الطرقات وبدأ يجمع المعلومات .. بدأ فى تضييق الخناق على حلفاء الحسين .. استغل الخدعة والمكيدة لمعرفة مكان إقامة مسلم بن عقيل .. بدأ فى الحصار النفسى على أتباع الحسين فرفع راية أمان لمن يتخلى عن ابن عقيل .. بدأ فى تخذيل الناس عن دعم الحسين وأصحابه .. كل هذا والتهديد بإيقاع أشد العقاب على من يثبت تورطه فى هذا التمرد يسرى بين الناس

(١) تاريخ الطبرى – الجزء الخامس – ص ٣٧٥

ليـــل نهـــارٍ .. لم تكن النتيجة أكثر وضوحاً .. وجد مســـلم بن عقيل نفسه وحيداً وقد انفض عنه من كانوا حوله فتم الإمساك به وأمر بن زياد بقتله ..

* * *

أثناء ذلك كان الحســـين يتجهز للخروج وقد انتشـــر الخبر بين الناس ومع إنتشـــاره هـــرع إليه كثير من الصحابـــة محاولين إثناؤه منعاً لشـــق الصف .. كثير من الصحابة حذروه إلا أنه تمســـك برأيه وقد يكون تمسكه نابع من كثرة الرسائل والتطمينات التى وصلته من الكوفة عن إســـتتباب الأمور هناك .. أخاه محمد بن الحنفية .. عبد الله بن عمر .. عبد الله بن جعفر .. حتى عبد الله بن الزبير أحد أكبر المعارضين ليزيد حذره وقتها قائلاً :

(أين تذهب .. إلى قوم قتلوا أباك وطعنوا أخاك)[1]

أما عبد الله بن عباس فقال له :

(استشـــارنى الحسين بن على فى الخروج فقلت .. لولا أن يُزرى بى وبك [2] لشبثت يدى فى رأسك)[3]

(١) سير أعلام النبلاء للذهبى – الجزء الثالث – ص ٢٩٣

(٢) الإزراء : التهاون بالشيء والمراد يستهان بنا

(٣) البداية والنهاية لابن كثير – الجزء الثامن – ص ١٥٩

أما أبو سعيد الخدرى فقال له :

(يــا أبــا عبد الله .. إنى لك ناصح ومشــفق .. وقد بلغنى أن قوماً من شيعتكم كاتبوك فلا تخرج .. فإنى سمعت أباك بالكوفة يقول .. والله إنى لقد مللتهم وأبغضونى وملونى وما بلوت منهم وفاء ومن فاز بهم فإنما فاز بالسهم الأخيب .. والله ما لهم ثبات ولا عزم ولا صبر على السيف)[1]

إحدى النساء تدعى عمرة بنت عبد الرحمن كتبت إليه قائلة :

(حدثتنــى عائشــة أنها سمعت رســول الله ﷺ يقــول : يقتل الحسين بأرض بابل)

فلما قرأ كتابها قال :

(فلابد إذاً من مصرعى)[2]

كانت التحذيرات كثيرة ومتعددة ولكنه رضى الله عنه كان قد عقد العزم على الخروج ..

* * *

(١) تاريخ الإسلام للذهبى – الطبقة السابعة – حوادث سنة إحدى وستين

(٢) من مشكاة النبوة – ص ١١٧

لما علم يزيد بن معاوية بأمر الحسين أرسل كتاباً إلى عبيد الله بن زياد قال فيه :

(بلغنى أن الحسين بن على قد توجه إلى العراق فضع المناظر والمسالح واحترس على الظن وخذ على التهمة غير لا تقتل إلا من قاتلك)[1]

و بناءاً على ذلك جهز عبيد الله سرية قدرت بأربعة آلاف جندى وأخرج على رأسها قائد شرطته الحُصين بن نُمير لحين تجهيز باقى الجيش .. الحصين بدوره أخرج فرقة من السرية قدرت بألف جندى وضع عليها الحُر بن يزيد ليسرع ويعترض طريق الحسين .. فى ذلك الوقت كان عبيد الله قد سيطر على الكوفة تماماً فأصبح الحسين فى طريقه وحيداً لا يرافقه إلا قرابة الثمانين فرد أغلبهم من أهل بيته ولم يمر وقت طويل حتى وجدت السرية الحسين وأصحابه فاستوقفوهم وأخبروهم بما حدث فى الكوفة وأن مسلم بن عقيل قد قتل وأن شيعته قد تفرقت عنه فحزن الإمام الحسين أيما حزن وقرر أن يعود إلى مكة مرة أخرى فقال للحر ومن معه :

(أيها الناس .. إنها معذرة إلى الله وإليكم إنى لم آتكم حتى أتتنى كتبكم ورسلكم أن اقدم علينا فليس لنا إمام لعل الله أن يجعلنا بكم

(١) تاريخ الطبرى – الجزء الخامس – ص ٣٨١

علـى الهدى فقد جئتكم .. فإن تعطونى مـا أطمئن إليه من عهودكم أقدم مصركم وإن لم تفعلـوا وكنتم لمقدمى كارهين انصرفت عنكم إلى المكان الذى أقبلنا منه)

إلا أن الحر وفرقته حالوا بينهم وبين الإنصراف فقال له الحسين:

(ما تريد ؟)

فقال الحر :

(أريد والله أن انطلق بك إلى عبيد الله بن زياد)

فرفض الحسين ورفض الحر غير ذلك وكثر الجدال بينهما حتى قال له الحر :

(إنى لم أؤمر بقتالك وإنما أُمرت أن لا أفارقك حتى أقدمك الكوفة .. فاذا أبيت فخذ طريقاً لا تُدخلك الكوفة ولا تردك إلى المدينة لتكون بينـى وبينك نصفاً حتى أكتب إلى ابن زياد وتكتب أنت إلى يزيد بن معاوية إن أردت أن تكتب إليه أو إلى عبيد الله بن زياد إن شـئت .. فلعل الله إلى ذاك أن يأتى بأمر يرزقنى فيه العافية من أن أبتلى بشيء من أمرك)[1]

(١) الكامل فى التاريخ لابن الأثير – ٤/٤٥ – ص ٥١٠

استمرت مسيرة الطرفين حتى وصلوا إلى كربلاء فى الثانى من محرم عام واحد وستين هجرياً وما هى إلا فترة قصيرة حتى لحق بهم الجيش الذى أعده عبيد الله لملاقاة الحسين وكان على رأسه عمر بن سعد بن أبى وقاص فعسكر الجيش على مقربة من ركب الحسين وبدأت المفاوضات بين الفريقين فكان عمر يطلب منه العودة إلى الكوفة فيسلمه إلى عبيد الله والحسين يرفض العودة ويعرض خيارات أخرى وهى :

- أن يعود من حيث أتى
- أن يخرج إلى ثغر من الثغور فيجاهد فى سبيل الله
- أن يذهب إلى يزيد فى الشام فيصل معه إلى حل

و هى خيارات كانت هى الأوقع وقتها وتنزع فتيل الأزمة وتضع الحل النهائى فى يد يزيد بن معاوية .. حلولاً استحسنها عمر بن سعد فقرر على الفور أن يبعث بها إلى عبيد الله بن زياد فقال :

(أما بعد .. فإن الله تعالى قد أطفأ النائرة وجمع الكلمة وأصلح أمر الأمة .. هذا الحسين قد أعطانى أن يرجع إلى المكان الذى منه أتى أو أن يسير إلى ثغر من الثغور فيكون رجلاً من المسلمين له ما لهم وعليه ما عليهم أو أن يأتى أمير المؤمنين يزيد فيضع يده فى يده فيرى فيما بينه وبينه رأيه .. وفى هذا لك رضى وللأمة صلاح)

فلما قرأ بن زياد الكتاب أثنى عليه وقال :

(هذا كتاب ناصح لأميره مشفق على قومه)

إلى هنا كان كل شـــيء يسير على ما يرام لولا وجود أحد شياطين الإنس بجوار بن زياد ..

شِمْر بن ذى الجوشن ..

* * *

شمـــر كان واحداً من أصحاب الفتن وكان أخر ما يتخيله هو قبول بن زياد بهذا الكتاب فقرر أن يدخل إليه من باب الكبرياء والكرامة فاستثاره قائلاً :

(أتقبـــل هذا منه وقد نزل بأرضـــك وإلى جنبك .. والله لئن رحل من بلادك ولم يضع يـــده فى يدكم ليكونن أولى بالقوة والعز ولتكونن أولى بالضعف والعجز .. فلا تعطه هذه المنزلة فإنها من الوهن ولكن لينزل على حكمك هو وأصحابه .. فإن عاقبت فأنت ولى العقوبة وإن غفرت كان ذلك لك)

ثم أكمل يريد أن يوغر صدر ابن زياد من عمر بن سعد فقال :

(والله لقد بلغنى أن حسيناً وعمر بن سعد يجلسان بين العسكرين فيتحدثان عامة الليل)

وجدت مقولة شمر صداها فى نفس عبيد الله للأسف فأرسل كتاباً غاضباً مع شمر إلى عمر بن سعد يأمره فيه بأن يأتى بالحسين جبراً وإلا فليقاتلهم وهدده بأنه إذا لم يقم بقتالهم فليتنحى عن قيادة الجيش ويسلمها لشمر بن ذى الجوشن فانطلق شمر سعيداً بما حققه وسلم الكتاب إلى عمر الذى صدم مما فيه فقال له :

(ما لك ويلك لا قرب الله دارك وقبح الله ما قدمت به على .. والله إنى لأظنك أنت الذى نهيته أن يقبل ما كتبت به إليه وأفسدت علينا أمراً كنا قد رجونا أن يصلح .. لا يستسلم والله حسين .. إن نفس أبيه لبين جنبيه)

فقال له شمر :

(أخبرنى بما أنت صانع .. أتمضى لأمر أميرك وتقاتل عدوه .. وإلا فخل بينى وبين الجند والعسكر)

قال :

(لا .. ولا كرامة لك .. ولكن أنا أتولى ذلك دونك)[1]

* * *

(١) تاريخ دمشق لابن عساكر – الجزء الخامس والأربعين – ص ٥١ : ٥٢

أرسل عمر بن سعد الرد النهائى إلى الحسين الذى رفض الإستسلام ووقف وقد نظم صفوف جيشه الصغير وانتظر هجوم جيش الكوفة ولم يبدأهم بالقتال .. فى الناحية الأخرى كان الترقب والقلق واضحاً جلياً على الجنود .. لم يكن يتوقع أحداً أن تصل الأمور إلى تلك المرحلة .. إنه الحسين .. ابن بنت رسول الله ﷺ .. ريحانته من الدنيا هو وأخيه الحسن .. الذى قال عنهم رسول الله ﷺ :

(اللهم إنى أحبهما فأحبهما وأحب من يحبهما)

كان الوضع صعباً للغاية ولكن فى النهاية لم يكن أحد ليستطيع رفض أمر عبيد الله بن زياد وهو القائد المباشر الذى أمر باستخدام أسلوب التخويف من الشقاق فكان قادة السرايا ينادون فى الجنود :

(يا أهل الكوفة .. الزموا طاعتكم وجماعتكم ولا ترتابوا فى قتل من مَرق من الدين وخالف الإمام)[1]

كانوا يستحثون الجيش على الطاعة ولزوم الجماعة معتبرين الحسين رضى الله عنه وأصحابه مارقون من الدين ولا حول ولا قوة إلا بالله ..

أما عن المعركة فكانت قصيرة لم تستمر طويلاً بسبب إختلال ميزان القوى .. هنا جيش كامل مجهز بالعدة والعتاد وهناك مجموعة

(١) تاريخ الطبرى – الجزء الخامس – ص ٤٣٥

لا تتخطى الثمانون رجلاً .. فى البداية بدأ الرماة يمطرون الحسين وأصحابه بالسهام فأصيب منهم من أصيب .. بعدها ضغطت السرية التى يقودها شِمْر على الباقين من أصحاب الحسين ودار بينهما القتال لمدة ساعة تقريباً صمد فيها أصحاب الحسين قدر استطاعتهم ولما انقشع الغبار ظهر أن أكثر من نصف جيش الحسين قد وقع صريعاً والباقى منهم مستمر فى الدفاع عنه وهو وسطهم تقريباً ..

بعد أقل من ساعة لم يتبقى من الجيش أحد ..

لم يتبقى منهم إلا الحسين نفسه ..

* * *

لم يتبقى فى الميدان إلا الحسين وكلما اقترب منه أحد الجند ليقتله لا يجرؤ فيرجع عنه .. لم تستطع أخته زينب الصبر على ما يجرى فخرجت وكان عمر بن سعد يقف على مسافة مما يجرى فنظرت ناحيته وصاحت :

(يا عمر .. أرضيت أن يقتل أبو عبد الله وأنت تنظر ؟)

فلم يتمالك نفسه وانهمرت دموعه وصرف وجهه عنها فلما رأى الجنود ذلك منه انصرفوا عن الحسين وتراجعوا .. ربما لكان الموقف إنتهى عند هذا ولكان انتهى الامر بالقبض على الحسين

إلا أن شيطان ذلك الزمان وقف لذلك بالمرصاد .. شمر بن ذى الجوشن مرة أخرى لما رأى الجنود يحجمون عن التقدم وقف وصرخ فيهم:

(ويحكم .. ماذا تنتظرون بالرجل .. اقتلوه ثكلتكم أمهاتكم)[1]

فقام أحد أتباعه برميه بسهم أصابه فى نحره سقط بسببه على الأرض وبسقوطه اجتمع عليه ملأ من القوم يضربونه بالسيوف والرماح فضربه زرعة بن شريك التميمى على كتفه اليسرى وضربه بعضهم على عاتقه ثم انفضوا عنه وهو يكبو على الأرض يحاول الوقوف فلما رآه سنان بن أنس النخعى يحاول القيام مرة أخرى طعنه بالرمح فأسقطه على الأرض واحتز رأسه وأعطاها لخولى بن يزيد الأصبحى وقيل فى رواية أخرى أن الذى ذبحه هو شمر بن ذى الجوشن ..

و انتهت المعركة بمقتل الحسين وقد وجد فى جسده الشريف ثلاثة وثلاثون جرحاً وتوفى معه كل أصحابه ما عدا ابنه على زين العابدين لأنه كان مريضاً فى ذلك اليوم ..

* * *

(١) البداية والنهاية لابن كثير – الجزء الثامن – ص ١٨٧

بعدها أرسلت رأس الحسين إلى عبيد الله بن زياد فى الكوفة فجعلوه فى طست ووضعوه أمامه فراح يحرك رأسه الشريف بقضيب كان فى يده وقتها قائلاً له :

(لقد كنت جميلاً)

فقال له أنس بن مالك :

(والله إنه كان أشبههم برسول الله ﷺ وكان مخضوباً بالوسمة)[1]

و يبدو أنه لما قال له ذلك خاف بن زياد وانقبض قلبه وبدأ يشعر بالندم وحاول أن يصلح ولو قليلاً مما فعله فأمر لنساء الحسين وأهله بمنزل فى مكان معتزل عن الناس وأجرى لهن الرزق وأمر لهن بنفقة وكسوة .. وبالرغم من كون ندمه جاء متأخراً جداً إلا أن بعض الروايات ذكرته ومنها رواية ابن كثير التى قال فيها :

(انطلق غلامان ممن كانا مع الحسين من أولاد عبد الله بن جعفر فأتيا رجلاً من طيء فلجئا إليه مستجيرين به فضرب أعناقهما وجاء برأسيهما لابن زياد فغضب ابن زياد وهم بضرب عنقه وأمر بداره فهدمت)[2]

(١) مشكاة المصابيح للتبريزى – الجزء الأول ص ٥١٨

(٢) البداية والنهاية لابن كثير – الجزء الثامن – ص ١٧١

أما بخصوص يزيد بن معاوية فقد وصلته الأخبار وهو فى الشام وأشهر الروايات التى حكت ذلك الموقف هى رواية ابن كثير التى رواها عن أحد شهود العيان وهو الغاز بن ربيعة الجرشى حين قال:

(والله إنى لعند يزيد بن معاوية بدمشق إذ أقبل زُحَر بن قيس فدخل على يزيد فقال له يزيد : ويحك .. ما وراءك ؟ فقال : أبشر يا أمير المؤمنين بفتح الله عليك ونصره ورد علينا الحسين بن على بن أبى طالب وثمانية عشر من أهل بيته وستون رجلاً من شيعته فسرنا إليهم فسألناهم أن يستسلموا وينزلوا على حكم الأمير عبيد الله بن زياد أو القتال فاختاروا القتل .. فغدونا إليهم مع شروق الشمس فأحطنا بهم من كل ناحية حتى أخذت السيوف مأخذها من هام القوم فجعلوا يهربون إلى غير مهرب ولا وزر .. ويلوذون منا بالآكام والحفر لواذاً كما لاذ الحمام من صقر .. فوالله ما كانوا إلا جزر جزور أو نومة قائل[1] حتى أتينا على آخرهم .. فهاتيك أجسادهم مجردة وثيابهم مزملة وخدودهم معفرة تصعرهم الشمس وتسفى عليهم الريح زوارهم العقبان والرّخم)[2]

فدمعت عينا يزيد بن معاوية وقال :

(١) يقصد فترة قصيرة

(٢) البداية والنهاية لابن كثير – الجزء الثامن – ص ١٩١

(قـد كنت أرضـى من طاعتكم بدون قتل الحسـين .. لعن الله ابن سمية[1] .. أما والله لو أنى صاحبه لعفوت عنه ورحم الله الحسين)

و قيل أنه لما علم ببغض الناس له لقتله الحسـين وسبهم إياه ندم على ما فعل وقال :

(ومـا على لو احتملت الأذى وأنزلت الحسـين معـى وحَكّمته فيمـا يريد وإن كان على فى ذلك وهن حفظاً لرسـول الله ﷺ ورعاية لحقـه .. لعن الله ابـن مرجانة[2] فإنه أحرجـه واضطره .. وقد كان سـأل أن يخلى سـبيله أن يرجع من حيث أقبل أو يأتينى فيضع يده فى يـدى أو يلحق بثغر من الثغور فأبى ذلـك عليه وقتله فأبغضنى بقتله المسـلمون وزرع لى فى قلوبهم العـداوة فأبغضنى البر والفاجر بما اسـتعظموه من قتلى الحسـين .. ما لى ولابن مرجانة .. لعنه الله وغضب عليه)[3]

قتل الحسـين يعتبر كارثة ومصيبة على أمتنا الإسـلامية نعانى منها حتى يومنا الحالى ولا يزال الجرح ينزف لا نجد سبيلاً لعلاجه ويكفى ما قاله شيخ الإسلام ابن تيمية فى هذا الشأن حين قال :

(قتل الحسـين مصيبـة من أعظم المصائب ينبغى لكل مسـلم إذا ذكرها أن يقول إن.ا لله وإنا إليه راجعون)

(١) يعنى عبيد الله بن زياد

(٢) يعنى عبيد الله بن زياد

(٣) الكامل فى التاريخ – ٨٨/٤ – ص ٥٢٣

معارضة عبد الله بن الزبير للحكم الوراثى

عبد الله بن الزبير بن العوام ..

جــده لأمه هو أبى بكر الصديق أحد العشــرة المبشــرين بالجنة وثانى اثنين إذ هما فى الغار .. أبوه هو الزبير بن العوام أحد العشرة المبشــرين بالجنة وهو أبن عمة النبى ﷺ صفية بنت عبد المطلب .. أمــه هى أسماء بنت أبــى بكر ذات النطاقين .. خالته هى الســيدة عائشة أم المؤمنين وزوج رسول الله ﷺ ..

أما عبد الله بن الزبير نفسه فكان أول مولود للمسلمين فى المدينة بعــد الهجرة وقد فرحوا بــه فرحاً عظيماً ذلك لأن اليهود أشــاعوا أنهم قد صنعوا سحر للمسلمين فلا يولد لهم ولد فكان ميلاد عبد الله تكذيباً وخزياً لهم ..

عبد الله وما أدراكم من هو عبد الله .. أول ما ولد وضعوه فى حجر النبى ﷺ فطلب أن يأتوه بتمره فمضغها ثم تفل فى فم عبد الله فكان أول ما دخل جوفه هو ريق رســول الله ﷺ وهو من أسماه عبد الله .. لما ولــد حمله جده أبو بكر وطاف به المدينة إبطالاً لشــائعة اليهود فكان المسلمون يكبرون خلفه فرحاً به ..

عبــد الله بن الزبير العالم الوقور الزاهــد العابد الفقيه فى الدين عالى الهمة شــديد الخشــوع .. أقرب الناس شبهاً بجده أبى بكر فى الهيئة والشــكل ونبرة الصوت وطريقة الــكلام حتى إذا تحدث ظن الناس أن أبا بكر لازال حياً ..

رضى الله عن عبد الله بن الزبير ..

هو بطل صفحاتنا التالية ..

* * *

كما أســلفنا فبعد تولية يزيد ركز جهــوده على أخذ البيعة ممن رفضوا مبايعته فى حياة والده وعلى رأسهم الحسين بن على وعبد الله بن الزبير وانتهى أمر الحســين بمقتله فى كربلاء فتوجهت أنظاره بعدهــا ناحية بن الزبير الــذى كان يدرك خطورة موقفه وما زاد من تلك الخطورة هو عدم تحرك الناس بعد مقتل الحسين .. نعم الضيق والتذمر كان واضحاً عليهم لكن أحداً منهم لم يتحرك فقرر ابن الزبير أن يستغل تلك المشاعر التى اختلجت فى صدور الناس وينميها دعماً لموقفه الرافض من المبايعة فوقف يوماً بين الناس وخطب فيهم قائلاً :

(إن أهل العراق غُدر فُجر إلا قليلاً .. وإن أهل الكوفة شرار أهل العراق وإنهم دعوا الحســين لينصروه ويولوه عليهم فلما قدم عليهم ثــاروا عليه فقالوا : إما أن تضع يدك فــى أيدينا فنبعث بك إلى ابن

زياد ابن سمية فيمضى فيك حكمه وإما أن تحارب فرأى والله أنه هو وأصحابه قليل فى كثير فإن كان الله لم يطلع على الغيب أحداً أنه مقتول ولكنه اختار الميتة الكريمة على الحياة الذميمة فرحم الله الحسين وأخزى قاتله .. أما والله لقد قتلوه طويلًا بالليل قيامه .. كثيراً فى النهار صيامه .. أحق بما هم فيه منهم وأولى به فى الدين والفضل .. أما والله ما كان يبدل بالقرآن الغناء .. ولا بالبكاء من خشية الله الحداء .. ولا بالصيام شرب الخمر .. ولا بالمجالس فى حلق الذكر تطلاب الصيد[1] فسوف يلقون غياً)[2]

خطاب مثل هذا وإجتماع الناس على ابن الزبير بهذا الشكل بالطبع سيصل إلى يزيد الذى رفض أن تتعقد الأمور أكثر مع شخصية مثل ابن الزبير خاصة بعد ما حدث مع الحسين فى كربلاء فآثر السلامة وأرسل إلى ابن الزبير كتاباً يذكره فيه بفضائله قال فيه :

(أذكرك الله فى نفسك فإنك ذو سن من قريش وقد مضى لك سلف صالح وقدم صدق من اجتهاد وعبادة .. فأربب صالح ما مضى ولا تبطل ما قدمت من حسن وادخل فيما دخل فيه الناس ولا تردهم فى فتنة ولا تحل ما حرم الله)

(١) بهذا هو ينتقص من يزيد

(٢) تاريخ المقريزى الكبير – الجزء الرابع – ص ٢٢٣

فــى ناحية يوجد يزيــد الذى يرى أنه الخليفة الشــرعى وأمير المؤمنــين الواجب طاعتــه بعد مبايعــة الناس له .. وفــى الناحية الأخرى يوجد بن الزبير الذى يرى أن اختيار يزيد لم يتم بالشورى وإنما باختياره تحولت الخلافة من الشــورى إلى الوراثة فكان يعتبر خروجــه عليــه وتغييره للواقع بقوة الســلاح إنما هــو تقرباً إلى الله وجهاداً فى سبيله ..

و قد روى عنه أنه قال يوم وفاته :

(والله لقــد مللــت الحيــاة .. ولقد جاوزت ســن أبــى هذه .. لى ســنتان وسبعون سنة .. اللهم إنى قد أحببت لقاءك فاحبب لقائى .. وجاهدت فيك عدوك فأثبنى ثواب المجاهدين)[1]

كانت الأمور متشابكة والدوافع تقريباً واحدة ومتكررة .. خليفة يؤمن بشــرعية خلافته .. ومعارضة ترى أنها على الحق .. بالأمس كان الحسين .. واليوم يوم ابن الزبير ..

* * *

رفــض ابن الزبير كتاب يزيد وأبى أن يبايع واســتمر فى تذكير الناس بنواقصه وما يتردد عليه من شبهات فغضب يزيد مما تصرفاته

(١) تاريخ دمشق لابن عساكر – الجزء الثامن والعشرون – ص ٢٢٦

وفى ذروة غضبه أقسم ألا يقبل بيعته إلا بعد أن يأتيه مغلولاً فى جامعة[1] .. قسماً وإن قيل فى لحظة غضب إلا أن يزيد أصر على تنفيذه على الرغم من محاولة ابنه معاوية بن يزيد أن يثنيه عنه لعلمه بشخصية ابن الزبير وأنه سيرفض هذا بالتأكيد إلا أن يزيد أصر على البر بقسمه وأرسل لابن الزبير وفداً من الشام ومعه جامعة من فضة وبرنساً من خَز[2] ليُغطى به فلا يعلم الناس أنه مقيد وظن أنه بهذا سيحافظ على صورة بن الزبير فيغريه بالقبول وأمر وفده بالتلطف معه وهو ما حدث حين أتى الوفد مكة فتكلم عنه ابن عضاة الأشعرى فقال :

(يا أبا بكر .. قد كان من أثرك فى أمر الخليفة المظلوم[3] ونصرتك إياه يوم الدار ما لا يُجهل .. وقد غضب أمير المؤمنين بما كان من إبائك مما قدم عليك فيه النعمان بن بشير وحلف أن تأتيه فى جامعة خفيفة لتحل يمينه فالبس عليها برنساً فلا تُرى .. ثم أنت الأثير عند أمير المؤمنين الذى لا يُخالف فى ولاية ولا مال)[4]

(١) الجامعة هى قيد يوضع فى العنق ويتصل بالمعصمين فتكون الأيدى مقيدة بالعنق

(٢) صوف

(٣) يعنى عثمان بن عفان

(٤) تاريخ دمشق لابن عساكر – الجزء الثالث والسبعون – ص ٢٣١

فلما سمع ابن الزبير منهم استأذنهم بضعة أيام للتفكير استشار فيها أمه أسماء بنت أبى بكر رضى الله عنها فقالت:

(يا بنى .. عش كريماً ومت كريماً ولا تُمكن بنى أمية من نفسك فتلعب بك فالموت أحسن من هذا)

فجاءهم رده بالرفض مرة أخرى وهو ما جعل ابن عضاة يحتد عليه ويهدده بالقتل فقال له بن الزبير :

(إنما أنا بمنزلة حمام من حمام مكة .. أفكنت قاتلاً حماماً من حمام مكة ؟)

فقال ابن عضاة :

(نعم .. وما حرمة حمام مكة .. يا غلام ائتنى بقوسى وأسهمى)

فلما أتاه بهما أخذ سهماً ثم سدده نحو حمامة من حمام المسجد وقال :

(يا حمامة .. أيشرب يزيد الخمر .. قولى نعم .. فوالله لئن فعلت لأرمينك .. يا حمامة .. أتخلعين يزيد بن معاوية وتفارقين أمة محمد ﷺ وتقيمين فى الحرم حتى يُستحل بك .. والله لئن فعلت لأرمينك)

فقال ابن الزبير :

(ويحك .. أو يتكلم الطائر ؟)

قال :

(لا .. ولكنك يا ابن الزبير تتكلم .. أقسم بالله لتبايعن طائعاً أو مكرهاً أو لتعرفن راية الأشعريين فى هذه البطحاء .. ولئن أُمرنا بقتالك ثم دخلت الكعبة لنهدمنها أو لنحرقنها عليك)

فقال ابن الزبير :

(أو تستحل الحرم والبيت ؟)

قال :

(إنما يستحله من ألحد فيه)

فحبسهم شهراً ثم ردهم إلى يزيد دون أن يعطيه شيئاً وسار بين الناس يقول :

(اللهم إنى عائذ ببيتك)[1]

رفضاً يليه رفض ..

هذا لن يستمر إلى الأبد بالتأكيد ..

(١) تاريخ المقريزى الكبير – الجزء الرابع – ص ٢٢٥

فـــى نفس العام حَج عبد الله بن الزبير مع عمرو بن ســـعيد عامل يزيد علـــى الحجاز فلم يصل بصلاته ولم يفيـــض بإفاضته وكان هذا أحد أكثر الأعمال ثورية من قبل بن الزبير حيث أنها تعنى المفارقة الكاملة لســـلطة الدولة فأصبح يتصرف بأمره الشـــخصى دون إعتبار لســـلطة يزيد حتى إنه منع الحـــارث بن خالد المخزومى نائب عمرو بن سعيد على مكة من الصلاة بالناس .. هذا مستوى أخر من التحدى .. مســـتوى غير مسبوق إذا شئنا الدقة .. لما علم يزيد بما حدث أمر عمرو بن ســـعيد أن يُسَـــير إلى بن الزبير جنداً فاحتـــار عمرو فيمن يرســـل على الجند فسأل من هو أكثر الناس عداءاً لابن الزبير فقالوا له شقيقه عمرو بن الزبير فاختاره على رأس الجند ..

* * *

عُرف عن عمرو بن الزبير أنه كان كثير العجب بنفســـه وأنه كان موال لبنى أمية وأنه كان كارهاً لأخاه عبد الله بســـبب خروجه على طاعة يزيد .. أيضاً عرف عنه أنه كان يعذب من كان يذكر أخاه عبد الله بخـــير أو حتى يُظهر التعاطف معه حتى هرب منه الكثير ولجأ إلى عبد الله بن الزبير فى مكة من شدة الإضطهاد ..

خرجـــت فرقة عمرو بن الزبير من المدينة المنورة فى ألف جندى ووضع عمرو على مقدمتها أنيس بن عمرو الأســـلمى فى سبعمائة من الجنـــد ثم تفرقا فنزل أنيس بذى طوى ونـــزل عمرو بالأبطح وما أن

وصل عمرو حتى أرسل إلى أخيه أن يمثل ليمين يزيد وبدأت المفاوضات بينهم وعبد الله يرفض أن يلبس الجامعة طالباً منه أن يخاطب يزيد فرفض عمرو مخاطبته وتعقدت المفاوضات بينهما .. بعد ذلك التعثر قرر ابن الزبير بعد مشاورة أصحابه أن يهاجم الفرقة الأموية فأرسل فرقتين للإحاطة بهم وبالفعل نجحا فى هزيمتهم وقتل أنيس بن عمرو فى ذى طوى بينما هزم عمرو بن الزبير قائد الجيش فى الأبطح واستجار بأخاه الثالث عبيدة بن الزبير ليتوسط له عند عبد الله وقد حاول بالفعل إلا أن عبد الله قال له :

(أما حقى فنعم .. وأما حق الناس فلأقتصن منه لمن أذاه فى المدينة)

و لما كان عمرو بن الزبير قد عذب كثيراً من الموالين لعبد الله فى المدينة فقد مات تحت السياط وهم يقتصون منه ..

* * *

بمقتل عمرو بن الزبير طويت أولى صفحات القتال بين بنى أمية وابن الزبير الذى استطاع بذكائه أن يجمع حوله كثير من الناس واستطاع أيضاً أن يُظهر يزيد بمظهر الحاكم المتسلط الغير مؤهل لولاية المسلمين وبدأ فى استغلال أخطاءه فى خدمة قضيته ..

– اســتخدم تسرع يزيد فى قسمه .. فلن يقبل الصحابة وأبناءهم فى مكة بإقتياد صحابى جليل مثل ابن الزبير بهذه الطريقة

– استخدم خطأ يزيد بتسيير جيش إلى مكة وهى البلد الحرام

– استخدم غضب الناس وحزنهم على مقتل الحسين

– استخدم الشبهات التى ترددت على يزيد فى ذلك الوقت

– استخدم تجبر أخاه عمرو بن الزبير وتعذيبه للموالين له فى المدينة

– استخدم العامل النفسى فأطلق على نفسه إسماً مؤثراً هو العائذ بالله

كل تلــك العوامل أظهرت ابــن الزبير بمظهر المدافع عن بيت الله الحرام وأن يزيد وعماله هم من يتجرأون على البلد الحرام فيغزونها ويُســيرون الجيوش للهجوم عليها وأن يزيــد ما هو إلا رجل لم يتم إختياره بالشورى وبالتالى فمعارضته صحيحة والخروج عليه وقتاله ضرورة استوجبتها مقتضيات الأمور ..

* * *

موقعة الحَرَّة

مقتل الحسين بن على كان أمراً فارقاً .. ما بعد مقتل الحسين ليس كما قبله بالتأكيد .. وكما أسلفنا فقد تركزت المعارضة فى مكة والمدينة بحكم أنه يعيش بهما صحابة رسول الله ﷺ وكثير من التابعين وهم أكثر من احتكوا بالخلافة الراشدة وبالتالى كانوا أكثر الناس رفضاً لفكرة توريث الحكم .. مقتل الحسين كانت القشة التى قصمت ظهر البعير وبدا أن أهل المدينة قد مالوا إلى رأى عبد الله بن الزبير وبدأ الحديث يكثر عن يزيد وأفعاله وعن الشبهات التى أحاطت بأسلوب معيشته .. يزيد اعتبر أن تداول مثل هذه الأحاديث دون تدخل من عمرو بن سعيد لمنعها يعتبر تساهلاً من طرفه فقام بعزله وعين مكانه الوليد بن عتبه أملاً فى ضبط أوضاع المدينة وهو ما لم يأتى بنتيجة تذكر فقام بعزله هو الأخر وعين بدلاً منه عثمان بن محمد بن أبى سفيان فقرر عثمان أن يجمع وفداً من أهل المدينة ليذهبوا لمقابلة يزيد فى الشام لعل بلقائهم يصلح الله ما بينهم ..

* * *

وصل الوفد إلى دمشق فالتقى بهم يزيد وأكرمهم وأحسن إليهم وأجازهم بمئة ألف درهم ثم عادوا مرة أخرى إلى المدينة وما أن عادوا حتى بدأوا فى ذم يزيد وشتمه وأمعنوا فى إنتقاصه حتى وصل بهم الأمر أن قالوا :

(قدمنا من عند رجل ليس له دين .. يشـرب الخمر .. وتعزف عنده القينات بالمعازف .. وإنا نشهدكم أنا قد خلعناه)[1]

فلمـا سمع يزيد بما جرى مـن الوفد وكان ضمنه المنذر بن الزبير أكثر من سبه منهم قال :

(اللهم إنى آثرته وأكرمته ففعل ما قد رأيت فأدركه وانتقم منه)[2]

و يبـدو أن الوضع السياسـى وقتها وكراهية أهـل مكة والمدينة ليزيد بسـبب مقتل الحسين قد جعلوا لشهادة الوفد وجاهة لا يمكن إنكارهـا فأعلنوا خلع يزيد وولوا عليهـم عبد الله بن حنظلة بن أبى عامر فأرسـل يزيـد إليهم النعمان بن بشـير ليحذرهم مغبة فعلهم ويخوفهم الفتنة والشقاق وأن يلزموا الجماعة فقال لهم النعمان :

(إن الفتنة وخيمة وأن لا طاقة لكم بأهل الشام)

فقال له عبد الله بن مطيع :

(ما حملك يا نعمان على تفريق جماعتنا وفسـاد ما أصلح الله من أمرنا ؟)

(١) البداية والنهاية لابن كثير – الجزء الثامن – ص ٢١٦

(٢) البداية والنهاية لابن كثير – الجزء الثامن – ص ٢١٦

فقال :

(أمــا والله لكأنى بك لو قــد نزلت تلك التى تدعو إليها[1] وقامت الرجال على الركب تضرب مفارق القوم وجباههم بالســيوف ودارت رحــا الموت بــين الفريقين .. وكأنى بك قد ضربــت جنب بغلتك إلى مكة[2] وخلفت هؤلاء المســاكين[3] يُقتلون فى ســككهم ومســاجدهم وعلى أبواب دورهم)[4]

حديث النعمان رغم واقعيته لم يجد صدى عندهم ويجوز أن ذلك بسبب تكرار الحديث عن نواقص يزيد ولهوه ولعبه فكان هذا كافياً لهم وتصاغرت أمامه أقوال من يريد إثناؤهم عن المواجهة ..

و هل هناك أخرين حاولوا ؟

بالطبع هناك ..

* * *

(١) يقصد الحرب

(٢) أى تركتهم وهربت

(٣) يعنى أهل المدينة

(٤) تاريخ الطبرى – الجزء الخامس – ص ٤٨١

عبد الله بن عمر جمع أهله وقال ناصحاً لهم :

(ينصــب لكل غادر لواء يوم القيامة .. وإنا قد بايعنا هذا الرجل على بيعة الله ورســوله .. وإنى لا أعلم غدراً أعظم من أن يبايع رجل على بيعة الله ورسوله ثم ينصب له القتال .. وإنى لا أعلم أحداً منكم خلعه ولا تابع فى هذا الأمر إلا كانت الفيصل بينى وبينه)[1]

موقــف أخر لعبد الله بــن عمر لما راى عبد الله بــن مطيع يحاول الهروب من المدينة بعد موقعة الحَرَة تهرباً من البيعة ليزيد فقال له :

(أين تريد يا ابن عم ؟)

فقال :

(لا أعطيهم طاعة أبداً)

فقال ابن عمر :

(لا تفعل[2] .. فإنى أشهد أنى سمعت رسول الله يقول : من مات ولا بيعة عليه مات ميتة جاهلية)[3]

(١) المهذب فى إختصار السنن الكبير للبيهقى – الجزء السادس – ص ٣٢٦٢
(٢) أى لا تخرج
(٣) مسند الإمام أحمد – الجزء الخامس – ص ١٠٨

محمد بن الحنفية شقيق الإمام الحسين جادلهم ونفى تهمة شرب الخمر عن يزيد ولم يشارك أهل المدينة طوال فترة القتال وكان معه على بن الحسين .. سعيد بن المسيب اعتزل الفتنة ولزم المسجد من النهار إلى الليل .. أما عبد الله بن جعفر فكان فى الشام عند يزيد قبل تحرك الجيش وحاول أن يثنيه عن قتال أهل المدينة فذكره بفضائلهم وسابقتهم فقال :

(إنما تقتل بهم نفسك)

فتجاوب معه يزيد وقال :

(فإنى أبعث أول جيش وآمرهم أن يمروا بالمدينة إلى ابن الزبير فإنه قد نصب لنا الحرب ويجعلوها طريقاً ولا يقاتلوهم .. فإن أقر أهل المدينة بالسمع والطاعة تركهم)

فكتب عبد الله إلى أهل المدينة يخبرهم بذلك فقال :

(استقبلوا ما سلف واغنموا السلامة والأمن ولا تعرضوا لجنده ودعوهم يمضون عنكم)

فكان ردهم :

(لا يدخلها علينا أبداً)[1]

(١) طبقات بن سعد – الجزء السابع – ص ١٤٥

عثمــان بن محمــد بن أبى ســفيان والى المدينة كان شــاباً صغيراً فطمــع به أهل المدينة وعزلوه ثم ســيطروا على الأماكن الحيوية بها .. المســجد .. بيت المال .. دار القضاء .. وما أن إمتلكوا زمام الأمور حتى بدأوا فى مطاردة من يعيش فى المدينة من بنى أمية فحاصروهم فــى دار مروان بن الحكم وقيل أن عددهم كان قرابة الألف شــخص فلما وصل أمرهم إلى يزيد غضب غضباً شــديداً وأمر الجيش الذى كان قــد جهزه لملاقاة ابن الزبير بأن يتوجه إلى المدينة فيقاتل من تراجع عن بيعته وكان على رأس الجيش مســلم بن عقبة المرى وكان شــيخاً كبيراً فقال له يزيد :

(ادع القــوم ثلاثاً فإن أجابوك وإلا فقاتلهم .. فإذا ظهرت عليهم فانهبهــا ثلاثاً فــكل ما فيها من مال أو دابة أو ســلاح أو طعام فهو للجند .. فإذا مضت الثلاث فاكفف عن الناس وانظر على بن الحسين فاكفف عنه واستوص به خيراً فإنه لم يدخل مع الناس وإنه قد أتانى كتابه)

فســار مسلم بالجيش حتى وصل إلى الحَرّة فى أواخر ذى الحجة عام ٦٣ هجرياً فدعا أهل المدينة قائلاً :

(إن أمير المؤمنين يزعم أنكم الأصل .. وإنى أكره إراقة دمائكم .. وإنــى أؤجلكم ثلاثاً .. فمن ارعوى وراجع الحق قبلنا منه وانصرفت

عنكم وسـرت إلى هذا المحل الذى بمكـة .. وإن أبيتم كنا قد أعذرنا إليكم)

فلما مضت الثلاث قال :

(يا أهل المدينة .. ما تصنعون ؟ .. أتسالمون أم تحاربون ؟)

فقالوا :

(بل نحارب)

فقال لهم :

(لا تفعلوا .. بل ادخلوا فى الطاعة ونجعل جدنا وشـوكتنا على أهل هذا المُحل[1] الذى قد جمع إليه المُرّاق والفُسّاق من كل أوب)

فقالوا له :

(يـا أعـداء الله .. لو أردتم أن تجوزوا إليه مـا تركناكم .. نحن ندعكم أن تأتوا بيت الله الحرام فتخيفوا أهله وتلحدوا فيه وتستحلوا حرمته .. لا والله لا نفعل)[2]

(١) يقصد ابن الزبير

(٢) الكامل فى التاريخ لابن الأثير – ١١٠/٤ : ١١٤/٤ – ص ٥٢٩ : ٥٣٠

و نشـب بينهم القتـال فكانت مقتلـة عظيمة قتـل فيها بعض الصحابـة والكثير من التابعين والصالحين وسـيطر الجيش الأموى بعدها على المدينة فاقتحمت البيـوت وتم نهبها ووصل عدد القتلى إلى سبعمائة رجل من حملة القرءان منهم ثلاث أو أربع من الصحابة حسب رواية الإمام مالك وهذا هو العدد الأصح والأقرب للدقة ..

لماذا نقول أن هذا هو العدد الأقرب للدقة ؟

لأن فتنـة الحَرّة نالهـا مثلما نال غيرها من الفـتن من مبالغات فى أحداثها أو تقدير عدد قتلاها فقيل أن عدد القتلى قرابة العشـر آلاف بينهم أطفال ونساء وقيل أن نساء المدينة قد اغتصبت وكل ذلك لم يحدث مطلقاً لأسـباب منطقية وبديهية يقبلها عقل أى مسلم فى زماننا الحالى فما بالنا بالمسلمين فى ذاك الزمان ومنها :

– أن النهب شمل المدينة المنورة بالكامل وهو ما لم يحدث وإنما شمل بيوت من شـاركوا بالقتال فقط فلم نسمع أن على بن الحسين أو عبـد الله بن عمر أو محمد بن الحنفية على سـبيل المثال قد انتهبت دورهم

– أن عـدد القتلى كان عشـرة آلاف وهى رواية عن الواقدى وهو متروك وقد وصل إلينا رواية أكثر قوة وهى رواية الإمام مالك ورواية شيخ الإسلام بن تيمية

– أن جيش الشـام قد نتفوا لحية أبو سـعيد الخدرى وهو ما لم يحـدث إذ كيـف يقبل العقل أن يفعل جيش الشـام هذا بواحد ممن اعتزلوا الفتنة ولم يشارك بالقتال

– أن جيش الشام قد انتهك أعراض النساء فى المدينة حتى حملت النساء ألف طفل سفاح – عياذاً بالله – وهو إتهام لا يمكن قبوله عقلاً ولا منطقاً لأننا لم نسـمع فى السـير عن أحد هؤلاء المولودين سفاحاً ولم يُذكر ولو إسـم شخص واحد منهم .. أيضاً فالمدينة كان بها كثير من الصحابة والتابعين ممن اعتزلوا الفتنة وهؤلاء بلا شـك لن يقفوا موقف المتفرج والإنتهاكات تجرى فى حق المسـلمات من أهل المدينة ولكانت اعتراضاتهم سجلتها صفحات التاريخ ..

– أخـيراً .. لم يصلنا أبداً ولو لمرة واحـدة أن جيش من جيوش المسلمين قد استباح أعراض النساء حتى فى المعارك مع الأمم الكافرة فهـل يتصور أحد أن تلك الأفعـال تحدث مع بنات وأخوات صحابة رسول الله ؟

– يقول الدكتور على الصلابى :

(إن انتهاك أعراض نسـاء المدينة لا أسـاس له من الصحة وإنها روايـات جـاءت متأخـرة وبدافع حزبـى بغيض يتخذ مـن الكره والتعصـب ضد التاريـخ الأموى دافعاً له وتهـدف إلى إظهار جيش

الشام – الذى يمثل الجيش الأموى – جيشاً بربرياً لا يستند لأسس دينية أو عقائدية أو أخلاقية وهذا الاتهام لا يقصد به اتهام الجيش الأموى فقط بل إن الخطـورة التى يحملها هذا الاتهام تتعدى إلى ما هو أعظم وهو اتهام الجيش الإسـلامى الذى فتح أصقاعاً شاسـعة فى تلك الفترة)

* * *

أخيراً ..

وقعة الحَرَة حدثت بالفعل ومات فيها كثير من المسـلمين الأوائل ذوى الفضـل والسـابقة وانتهبت فيها البيوت ثلاثـة أيام وكل هذا حـدث بأمر مـن يزيد بن معاويـة بالفعل وهو أمر ثابـت تاريخياً وبعض المؤرخين والفقهاء قد حمل يزيد مسئولية الدماء التى أريقت وبعضهـم حملها على أهل المدينة الذين خرجـوا على يزيد ونقضوا مبايعته إلا أن الأقرب للحقيقة أنها فتنة شملت الجميع ففى النهاية قد سفكت دماء المسلمين وعلى ما يبدو فإن من إعتزل الفتنة كانوا هم الأقرب للصواب والله أعلى وأعلم ..

* * *

الهجوم على بن الزبير فى مكة

بعد أن انتصر جيش الشـام فى موقعة الحرة سار مسلم بن عقبة بالجيـش نحو مكة يريد قتال ابن الزبير وقبل أن يصلوا إليها توفى مسـلم وتولى قيادة الجيش بعده الحُصين بن نُمير فما أن وصل حتى نشـر جيشه وحاصر مكة لأكثر من شـهر دون قتال لعل ابن الزبير وأصحابـه يستسـلمون إلا أن هذا لم يحدث فقـرر الحُصين الهجوم على مكة فى منتصف شـهر صَفَر ونجح جيش الشـام فى السـيطرة على بعض الجبال المحيطة بمكة ثم اسـتمر تراجع ابن الزبير حتى سـيطر جيش الشام على كل المناطق المحيطة بالمسجد الحرام تقريباً فلما رأى ابن الزبير ذلـك إحتمى ومن معه بالحرم فنصبوا خيامهم بجانـب الكعبة ووضع بعض الألواح حول الحرم حماية لها ولم يعد هناك خيارات كثيرة .. إما استمرار الهجوم وإما الحصار إلى ما شاء الله ..

* * *

الحُصين إختار الهجوم وقرر أن يكون هجومه عن طريق المنجنيق فنصب منجنيقه وبدأ فى توجيه القذائف ناحية أصحاب ابن الزبير وفـى أحد الأيام تسـببت إحـدى القذائف فى إندلاع بعض الشـرر وكانـت الريح شـديدة فعلقت النـيران بالخيام المحيطـة بالكعبة فوصلت النيران إلى الكعبة فأحرقت أسـتارها ولم ينجح جيش مكة

فى السيطرة عليها وإطفاءها .. حدث مثل هذا جعل القتال يتوقف ونال الذهول من الطرفين ..

– يقول الذهبى :

(لما فعل يزيد بأهل المدينة ما فعل مع شربه الخمر وإتيانه المنكرات اشتد عليه الناس وخرج عليه غير واحد ولم يبارك الله فى عمره وسار جيش الحرة إلى مكة لقتال ابن الزبير فمات أمير الجيش بالطريق فاستخلف عليهم أميراً وأتوا مكة فحاصروا ابن الزبير وقاتلوه ورموه بالمنجنيق ذلك فى صفر سنة أربع وستين واحترقت من شرارة نيرانهم أستار الكعبة وسقفها وقرنا الكبش الذى فدى الله به إسماعيل وكان فى السقف وأهلك الله يزيد فى نصف شهر ربيع الأول من هذا العام)[1]

* * *

ما أن تم السيطرة على الحريق حتى اشتبك الجيشين مرة أخرى حتى وصل خبر وفاة يزيد وقد وصل الخبر إلى جيش بن الزبير قبل أن يصل إلى جيش الشام فوقف المكيين ونادوا فى جيش الشام :

(يا أهل الشام .. لماذا تقاتلون .. لقد هلك يزيد)

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطى – ص ١٦٤

بالطبع لم يصدقوهم واستمر القتال بينهم حتى وصلهم الخبر فتوقف القتال وبدأت المراسلات بين عبد الله بن الزبير والحصين بن نمير ..

طلب الحصين بن نمير مقابلة ابن الزبير فلما قابله قال له :

(إن يك هذا الرجل قد هلك فأنت أحق الناس بهذا الأمر .. هلم فلنبايعك .. ثم اخرج معى إلى الشام فإن هذا الجند الذين معى هم وجوه أهل الشام وفرسانهم .. فوالله لا يختلف عليك اثنان وتُؤَمن الناس وتهدر هذه الدماء التى كانت بيننا وبينك)

فقال بن الزبير :

(لا أفعل .. ولأقتلن بكل رجل عشرة)

فقال الحصين :

(قد كنت أظن أن لك رأياً .. أنا أدعوك إلى الخلافة وأنت تعدنى بالقتل)[1]

و كان قد خشى أن يذهب إلى الشام فيضع نفسه رهن أهواء أهلها وقد لا يقبلوا مبايعته وهو من هو فاستقر على الإستمرار فى مكة

(١) المنتظم فى تاريخ الملوك لابن الجوزى – الجزء السادس – ص ٢٣

التـــى احتمى بها طـــوال الفترة الماضية فرجع عنـــه الحصين بعد أن أخـــبره أن هذا هو أنســـب وقت يبايع لك فيه أهل الشـــام فلا يوجد ليزيـــد أبناء كبار ولـــن يعارضك أحد منهم لمكانتـــك وفى حالة عدم ســـفرك فإن بنى أمية ســـيفضلون تولية أحدهم بلا شك وهو ما يفتح الباب لتجدد القتال بينهم حتى وإن تأجل ..

* * *

أما عن يزيد بن معاوية وكيفية التعامل مع ذكره وسيرته :

– يقول الذهبى فى السير :

(ويزيد ممن لا نســـبه ولا نحبه .. وله نظراء من خلفاء الدولتين وكذلـــك فى ملوك النواحى بل فيهم من هو شـــر منـــه .. وإنما عظم الخطب لكونه ولى بعد وفاة النبى ﷺ بتسع وأربعين سنة .. والعهد قريب والصحابة موجودون كابن عمر الذى كان أولى بالأمر منه ومن أبيه وجده)[1]

– أما شيخ الإسلام بن تيمية فقال عنه :

(بـــل يزيد مع ما أحدث من الأحداث من قال فيه إنه كافر مرتد فقـــد افـــترى عليه .. بل كان ملكاً من ملوك المســـلمين كســـائر ملوك

(١) سير أعلام النبلاء للذهبى – الجزء الرابع – ص ٣٦

المسلمين وأكثر الملوك لهم حسنات ولهم سيئات .. وحسناتهم عظيمة وسيئاتهم عظيمة .. فالطاعن فى واحد منهم دون نظرائه إما جاهل وإما ظالم .. وهؤلاء لهم ما لسائر المسلمين منهم من تكون حسناته أكثر من سيئاته .. ومنهم من قد تاب من سيئاته .. ومنهم من كفر الله عنه .. ومنهم من قد يدخله الجنة .. ومنهم من قد يعاقبه لسيئاته .. ومنهم من قد يتقبل الله فيه شفاعة نبى أو غيره من الشفعاء .. فالشهادة لواحد من هؤلاء بالنار هو من أقوال أهل البدع والضلال)[1]

* * *

(١) مجمع الفتاوى لشيخ الإسلام بن تيمية – الجزء الرابع – ص ٢٨٩

بنى أمية بعد وفاة يزيد

بعد وفاة يزيد بن معاوية احتار بنى أمية فى اختيار الخليفة الجديد خاصة ان ابنه معاوية كان ابن اثنين وعشرين عاماً وكان مريضاً لا يستطيع النهوض بمسئولية الإمارة أما ابن الزبير فبينه وبينهم ما قد سلف وهو بالأساس رفض القدوم إلى دمشق فلم يجدوا بداً من توليه معاوية بن يزيد رغم مرضه .. وبالرغم من توليته إلا انه أمضى فترة خلافته مريضاً وكان يسير أمور الدولة بدلاً منه الضحاك بن قيس وكان رحمه الله تقياً زاهداً صادقاً مع نفسه ومع من بايعوه فقد روى أنه بعد دفن والده ومبايعة الناس له نادى فى الناس أن الصلاة جامعة وخطب فيهم قائلاً :

(أما بعد .. فإنى ضعفت عن أمركم فابتغيت لكم مثل عمر بن الخطاب حين استخلفه أبو بكر فلم أجده .. فابتغيت ستة مثل ستة الشورى فلم أجدهم .. فأنتم أولى بأمركم فاختاروا له من أحببتم)[1]

ثم نزل ودخل منزله فلم يخرج منه حتى توفى وقد استمرت خلافته ما بين الشهرين والثلاث على الأكثر وروى أنه لما حضرته الوفاة إجتمعوا له وسألوه أن يعهد لأحد من أهل بيته فقال :

(١) الكامل فى التاريخ لابن الأثير – ١٢٩/٤ – ص ٥٣٤

(والله مـا ذقت حلاوة خلافتكم فكيف أتقلد وزرها .. وتتعجلون أنتـم حلاوتها وأتعجل مرارتهـا .. اللهم إنى بـريء منها متخل عنها)[1]

* * *

فى تلـك الأثناء كان ابن الزبير يدعو لنفسـه مـن مكة كخليفة للمسـلمين وبدأت المبايعـات تأتيه من أقطار المسـلمين فبايعه أهل الحجـاز واليمن ومصر وجزءاً من أهل العـراق وحتى جزء من أهل الشـام وهم القيسـيون أتباع الضحاك بن قيـس ولم يبقى لبنى أمية مبايعين فى الدولة الإسـلامية إلا الموالين مـن اليمنيين المقيمين فى الشـام بزعامة حسـان بن مالك الكلبى وبدا أن الأمر قد حُسِـم لابن الزبير لسـابقته وفضائله وعلمه وبينما كان ابن الزبير يوطد خلافته ويسير العمال كان بنو أمية يواجهون إنقساماً داخلياً واحتار أمرهم بـين تولية خالد بن يزيد ومروان بـن الحكم حتى مالت كفة مروان فبايعوه أميراً عليهم فى مؤتمر الجابية ..

لمـا تولى مـروان الأمر إكتشـف صعوبه موقفه وكيـف أن كثيراً مـن الناس قـد بايع ابن الزبير وهو بهذا قد صار الخليفة الشـرعى للمسلمين بإجتماع غالبية الناس على مبايعته حتى إنه هم بالذهاب

(١) النظرية المتكاملة فى الشورى لأمجد ربيع – ص ٩٠

إلى مكــة لمبايعته لولا عودة عبيد الله بن زياد إلى الشــام بعد هروبه من العــراق الذى اضطربت أموره ولولا أيضــاً دعم الحصين بن نمير وروح بن زنباع الجذامى الذين أثاروا حمية بنى أمية وطالبوهم بعدم التنازل عن ملكهم ومنازعة ابن الزبير عليه ..

بعــد مبايعة مروان بن الحكم تجمع المبايعين لعبد الله بن الزبير واستعدوا للهجوم على بنى أمية بحكم أنهم الآن هم الخارجين على ولى الأمر الشرعى بعد إتفاق الناس عليه فتجمعت قوات الضحاك بن قيس وانضم لهم قوات النعمان بن بشــير وقوات زُفَر بن الحارث فى مرج راهط ودارت هناك معركة انتصر فيها جيش الأمويين حســمت بها بنو أمية أمر الشــام واســتقر الوضع لهم فيها وبهذا خســر بن الزبير أول أضلاع خلافته ..

بــدأت المرحلة الثانية من خطة مروان بن الحكم لاســتعادة ملك بنى أمية مرة أخرى بتوجهه إلى مصر ليستردها من عامل ابن الزبير عليها عبد الرحمن بن جحدم فلما علم بقدومهم خرج اليهم بجيشــه لملاقاتهم ودارت المعركة بينهم واســتمرت لفترة دون أن يحســمها أحــد الطرفين فقررا الإصطلاح حقنــاً للدماء على أن تتبع مصر لبنى أمية وفى المقابل يتم إقرار بن جحدم على ولايتها ووافق مروان على هذا إلا أنه بعد فترة انسلخ من وعده لابن جحدم فعزله وسيطر على

الأمور تماماً فى مصر فاتحاً خزائنه للناس مجزلاً لهم العطايا فأقبل عليه الناس مبايعين وبهذا خسر ابن الزبير ثانى أضلاع خلافته ..

* * *

الوضع السياسى للدولة الإسلامية وقتها كان منقسماً بشدة فقد تقسمت الدولة إلى ثلاث مناطق رئيسية تشعر وكأن كل جزء منها يسير وفق خطته الخاصة ..

- الحجاز واليمن كانوا تحت سيطرة ابن الزبير

- الشام ومصر كانوا تحت سيطرة بنى أمية

- العراق منقسم بين ابن الزبير والمختار الثقفى والخوارج ومن بعيد يتربص به مروان بن الحكم لاستعادته

العراق تحديداً كان يعتريه الفتن فى ذلك الوقت فالمختار الثقفى رفع شعار يا ثارات الحسين مطالباً بالثأر ممن شارك فى قتله وكان معقله الكوفه .. ابن الزبير بعث جيشاً بقيادة أخيه مصعب بن الزبير للسيطرة على كامل العراق وكان معقله البصرة .. مروان بن الحكم أرسل جيشاً بقيادة عبيد الله بن زياد لاستعادة العراق تحت حكم بنى أمية مرة أخرى .. الخوارج فى خندقهم الخاص فهم ضد كل من سبق ذكرهم .. وأهل العراق منقسمون بين الجميع لا يستقر أمرهم لأحد ولا يستمر لهم والياً ..

وبينما تجرى كل تلك الأمور كان أحدهم يتابع ما يحدث بإهتمام .. يتابــع ويقيم الوضع برؤيته الثاقبة على الرغم من صغر ســنه .. أربعة وعشرون عاماً فقط كان عمره وقت حدوث تلك الأحداث .. رأى العــراق وفتنها .. رأى ابن الزبير وخروجه على يزيد .. رأى بعينه هبوط وصعود دولة بنى أمية .. رأى مروان بن الحكم وما أحدثه من طفــرة فى وقت قصير .. كان يعيش فى جزيرة العرب .. تحديداً فى ثقيف .. ذلك الشاب الذى امتلك الكثير من الطموح علم أن عبد الملك بن مروان تولى إمارة الشام خلفاً لأبيه المتوفى ..

– عبد الملك بن مروان ؟!!

– ألا يوحى لكم هذا الإسم بشيء ؟

– بالطبع يوحى ولا شك ..

– هو الخليفة الذى سيلمع فى ولايته بطل قصتنا ..

– الحجاج بن يوسف الثقفى ..

* * *